الحالة التونسية: الموظفون الصغار ليسوا نخبة حكم

الوضع السياسي في تونس يستعصي على القراءة والتحليل، ويوشك المرء أن يتهم عقله على أن يغامر في الإجابة عن أسئلة محددة، من قبيل أين اختفى ذلك الهياج الجبار الذي مارسه الشارع التونسي ضد حكومة الإسلاميين في أول الربيع العربي وعلى الرئيس المرزوقي المتحالف مع الإسلاميين؟ لماذا يصمت هذا الشارع الجبار وهو يشهد في كل حركة يقوم الرئيس الحالي تفتيت أركان الدولة وقيمها وتاريخها؟

لقد كانت الأرقام الاقتصادية لتلك الحكومة جيدة، وكانت ساحات الحرية مفتوحة حتى للمثليين ليعبّروا عن وجودهم. لقد طاب لكثيرين حينها الحديث عن الاستثناء التونسي (مقارنة بالعرب)، لكن أين انتهى الاستثناء التونسي؟ هل كان ذلك الشارع مكلف بمهمة وحيدة: إسقاط الإسلاميين والعودة إلى هدوء زمن بن علي؟ ألا يخامره السؤال التاريخي عن مستقبل تونس تحت حكم قيس سعيّد؟ خاصة أن الرجل قد أغلق كل المنافذ على كل منافسة قد تنتزع منه السلطة؟ سنغامر في بعض الإجابة ولا نعدُ بيقين.

الرئيس ينبّهنا إلى طبيعة النخبة التونسية

كل ما يقوم به الرئيس الحالي هو إهانة الشعب التونسي، ففي كل حركة من حركاته استهانة بالناس ومعيشتهم، لكنه يكشف استهانة بالنخبة التونسية خصوصًا. وإذا كان من عادة حكّام العرب القدامى والمحدثين الاستهانة بالجمهور الصامت (وهذا تراث يطول فيه الشرح)، فإن امتهان النخبة صار موضة الحكام المتأخرين.

مقابل الافتخار بالاستثناء التونسي (وتونس هنا مثال قابل للتعميم عربيًا)، ومقابل الافتخار بالجامعة وقدرتها على صناعة النخب المفكرة والتكنوقراط، ومقابل غرور وصل عنان السماء بمعرفة إدارة الدولة زمن الترويكا، نرى صمتًا وخنوعًا بل مسارعة إلى القفز بجوار الرئيس.

وقد كشف آخر تعديل وزاري (تعديل 25 أغسطس/ آب) أن بغية النخب هي السلطة ومنافعها القريبة

من اليد، بقطع النظر عن الأثر الفعلي وعن الإنجاز وعن البصمة الشخصية أو المجد الفردي الذي كان الشخص يطلب السلطة لتحقيقه.

هل هذه نفس النخبة التي جعلت حكم الإسلاميين القصير مثالا على الفشل، ولا تزال تطاردهم وهم في سجونهم كأنهم حجبوا الشمس عن تونس؟

لقد تبيّن أن الرئيس الحالي لا يحترم وزراءه ولا تعنيه مواقفهم أو ذواتهم، بل يعاملهم كموظفين صغار ملزمين فقط بالطاعة وتنفيذ أوامره العلية، بل كان خطاب القسم لهذه الحكومة إهانة بالغة لمن عُزلوا، وفيهم من لم يتجاوز فترة توزيره الشهرين (وزيرة التربية)، فقد اتهمهم بالخيانة وتعطيل عمل الدولة، ونظنه يتفضل عليهم بعدم محاكمتهم، ولا يبقي لهم إلا سلامة العودة إلى بيوتهم والانكفاء بصمت، فقد امّحى ذكر رئيسي حكومة عينهما بعد 25 يونيو/ حزيران.

فكيف يقبل وزير متعلم تعليمًا عاليًا وله تجربة قاضٍ أو خبير في مجاله، أن يتقدم لمنصب يعرف أنه لن يؤثر به في سياسة ولن ينجو من تلطيخ سمعته إذا لم ينفذ الأوامر؟

هذه الهشاشة الأخلاقية تكشف ضعفًا في النخبة وفقدانًا تامًّا للشخصية القيادية، إذ يصير أقصى طموح الواحد منها المرسديس الرسمية، وكوبونات البنزين، وأيام قليلة من التمتع بنداء سيادة الوزير. وربما تتمتع بزوجته بمعينة منزلية وسائق لمدة محدودة، وربما تتبجح في حمّام النساء بكونها زوجة الوزير.

أهذا طموح النخبة؟ أهذا يكفي لنفهم تكوين النخب وبناء شخصياتها؟ نرى هذا مدخلًا لفهم سياسات الرئيس، فهو يعامل هذه النخب بامتهان لأنها فعلًا قابلة للاحتقار. ويسجّل له فضل كشف هشاشتها وضعف شخصياتها، ونخلص إلى قاعدة تحليل دائمة مثل هذه النخب لا تبني الدول بل تهدم المبني منها.

مصير البلد في يد غبية

لا يحتاج المرء إلى ذكاء خاص ليكتشف أن تعديل الحكومة قبل أيام قليلة من موعد انتخابي مصيري، يعني نية بقاء دائم للرئيس، وما الموعد الانتخابي إلا شكلية إجرائية عابرة لن تغير الوضع ولن تغير الرئيس طبعًا. لقد أصبح التونسيون يوم 26 أغسطس/ آب بحكومة جديدة محدودة العمر بمزاج الرئيس وبرئيس دائم لن يتزحزح عن منصبه.

فتح هذا باب المقارنات الموجعة بين زمن بورقيبة وزمن قيس، بل بين زمن بن علي وزمن قيس. والتونسيون لهم مثل معبّر في الغرض، إذ يقولون: "ما أحسن زوج أمي الأول فقد كان يضربني ويسمح لي بالبكاء، أما هذا فيضربني ويأمرني بالخرس".

نقول اللحظة لقد كان من حكمنا ديكتاتورًا لكنه كان يحافظ على شكل الدولة وهيبتها. وكان هناك في تونس وزراء من ذوي البصمات التاريخية الذين فرضوا لونهم على بورقيبة نفسه، وهو من هو في غروره وزعامته. من أين دخل هذا التردي؟ هنا سنجد مفاتيح التحليل وعسى أن نصيب.

الجامعات العربية وفي مقدمتها الجامعة التونسية موضوع فخر الدولة، لم تصنع نخبًا بل صنعت موظفين صغارًا أقصى طموحاتهم راتب عالٍ وامتيازات الوظيف، لذلك كان الرؤساء يجدون دومًا مدخرًا منهم للتوظيف والإهانة (أو وزراء ممسحة) بثقافة ضعيفة وشخصية أضعف.

إن رجلًا أو سيدة يضع أقسى طموحه سيارة إدارية لا يمكن تصنيفه في النخبة، لكن القياسات التقليدية جعلتنا نسلم بالتصنيف، إنما نحن إزاء موظفين لم تكبر عقولهم ليكون لهم أثر وذكر، وهو شأن النخبة كما تعلمناها من تاريخ النخب التي بنت دولًا مؤثرة.

نعود من هنا لنفهم التنمر على حكومة الترويكا الإسلامية. لقد تعاملت تلك الحكومة وذلك الرئيس

(الاستثنائي) مع هذه النخب على أنها نخب فعلية، ففسحت لها مجال التعبير والحركة، فظنّ هؤلاء الموظفون أن بالحكومة ضعفًا ويدً مرتعشة، فأسقطوها بتهييج الشارع من وراء الشاشات وبواسطة إعلاميين مصطنعين.

لم يكن ضعفًا بل كان إيمانًا بالديمقراطية التي يحترم فيها الحاكم النخب ويستمع إليها، لكنه احترام مبني على مثاليات تجهل طبيعة هؤلاء. ولن نكتب ما يسوّئ المرحلة، فقد كانت مرحلة نقية. ألم تكن نخبة الترويكا من الجامعة التونسية؟ بلى، لكنها تربت في المعارضة ولم تتشوه بأعطيات السلطة، ولم تعش الخزي الإداري الذي مرت به نخب بن علي (وهو الخزان الذي يأخذ منه الرئيس الحالي وزراءه).

نكتب عن الضوء في آخر النفق لنختم بألم وأمل. نحن نشهد نهاية دولة بورقيبة، فما يفعله الرئيس الحالي (الباقي بالقوة) هو الإجهاز على دولة أفلحت رغم الديكتاتورية في الحفاظ على حد أدنى من الاحترام للمؤسسات، فأقلّها أن الوزير وإن لم يكن ذا بصمة وأثر كان يسخن كرسيه ولا يُرمى في الطريق مثل ممسحة.

لقد كان ذلك من هيبة الدولة، وتحطيم هذه الهيبة الآن وغدًا لا يمس الأشخاص الممسحة بل يهم الدولة نفسها، بما يؤهّل الوضع لتغيير جذري بنخبة جديدة لم تتلوّث بالطموحات الصغيرة. إن تونس وبشيء من بشارات رومانسية روائية (ربما) تعيش آخر أيام دولة بورقيبة، وقد قيّض لها من داخلها من يفنيها ليمهّد الأرض لمستقبل آخر، بلا أثر الزعيم الذي قال يومًا إن شعبه غبار من البشر. هنيئًا لجيل لن يصلي لبورقيبة. سندلّ عليه أولادنا بعد التجربة.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/240984/